International Journal of Language Academy
ISSN:2342-0251
DOI Number: http://dx.doi.org/10.18033/ijla.4162
Research Article

Volume 7/2 June 2019
p. 365/382

ArticleHistory:
Received
04/05/2019
Received in revised form
04/05/2019
Accepted
29/06/2019
Available online
30/06/2019

THE ANCIENT AND MODERN POSITION BETWEEN AL-JAHEZ AND IBN QUTAYBA

Kawther Mahmoud Ali Obaid[1]

Abstract

Disputing between Ancient and modern is a critical issue that distracted the critics for long time, the more this issue is raised, the more the conflict begins to intensify also, the opinions varies and scholars differ in their opinions due to the development of the Arab civilization. This issue produced three categories: The first category is supporters "Ancient" who they glorify the pre-Islamic poetry and consider it the origin that should not be alienated. The second category is supporters "Modern" who they saw that it was time to move towards renewal, and make radical changes affecting the change of style of the Arabic poem, and then depart from the authority of the Ancient, which has been in the structure for decades, which contributed to the emergence of what known is as Bdi' poets; such as Bashar ibn Burd and Abu Tammam. The third category is between "Ancient" and "Modern", this category seeks to arbitrate the objective view of poetry to consider that the quality and poor are the correct measure of poems away from era and time.

This study is intended to elucidate the views of the critics "Al-Jahiz (255 AH) and Ibn Qutayba (267 AH)" and provide an integrated image in the field of literary criticism, the importance comes from discovering new critical issues in our ancient critical heritage that is worthy of attention to meet with modern criticism concepts. We have relied on our explanations and analysis of various critical statements and opinions on the descriptive analytical approach. The study showed the position of both the critics "Al-Jahiz and Ibn Qutayba", who were not bigot to "Ancient" and they were not countenancer to "Modern" only it's modern, but they judged the objective view, control quality and poor, the dexterity in the skill, and proficiency in the discipline. Al-Jahiz has applied his theory of concepts that have turned many of the prevailing concepts in Ancient Arabic criticism, also Ibn Qutayba walked on Al-Jahiz's path. Their views were the basic building blocks from which the creator of renewal and innovation, and work to create a bridge between "ancient and modern" to push the process of creativity, "ancient" must be accommodated to represent "modern", Al-Jahiz believed when he said: "If you heard the man say what the first left thing to the other, then know that what he wants to succeed." These views were widely echoed in modern criticism, as Taha Hussein says:" "We are forced to connect "ancient" and "modern" because every ancient was modern in its time, every "modern" will become "ancient" ".

Keywords: Al-Jahiz Ibn Qutaiba - ancient - modernism - intolerance - moderation – renewal.

[1] Assistant Professor Dr. at King Khalid University. Faculty of Science and Arts - Department of Arabic Language - Khamis Mushait

الموقف من القديم والحديث بين الجاحظ وابن قتيبة

إعداد/ د.كوثر عبيد

أستاذ مساعد في جامعة الملك خالد

كلية العلوم والآداب/قسم اللغة العربية /خميس مشيط

مقدم إلى مؤتمر بايبر الثاني – تركيا

المنعقد في شهر مارس-2019م

الموقف من القديم والحديث بين الجاحظ وابن قتيبة

إعداد /د.كوثر محمود علي عبيد/أستاذ مساعد في جامعة الملك خالد

كلية العلوم والآداب /قسم اللغة العربية /خميس مشيط

ملخص البحث:

القديم والحديث مصطلحان نقديان من مصطلحات القرن الثاني الهجري، اشتغل بهما كثير من علماء العربية وأدبائها، ودار حولهما جدال فكري ونقدي شديد وصل إلى حد الصراع بين أنصارهما والمعارضين لهما، فالقديم الذي يتحدثون حوله هو الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام منتهياً في أوائل القرن الثاني الهجري، أما الشعر المحدث فهو شعر ما عرف بالمولدين الذين ثاروا على نمطية القصيدة الجاهلية وصياغتها وبنيتها الفنية والتي تبدأ ببشار بن برد ومروان بن أبي حفصة وغيرهما من مخضرمي الدولتين[2].

وقد انقسم الرواة والعلماء والنقاد والشعراء ثلاثة أقسام حيال هذه القضية الحيوية التي شغلتهم فترة طويلة، فاللغويون الذين يعدوّن أنفسهم سدنة الشعر القديم وهم الذين أخذوا على عاتقهم جمع اللغة من فصحاء العرب الذين لم يؤثر فيهم روح الحضارة والتغير والتطور الذي أصاب الحضارة العربية، أصبح هذا الإرث اللغوي والأدبي جزءاً من كيانهم، فأخذوا يدافعون عنه، ويعدونه الأساس الذي يجب أن يكون عليه الشعر، لذلك لم يحلفوا بشيء من شعر المولدين والمحدثين، ولم يعدوه من الأشعار التي يستشهد بها، لأنه بعيد عن السليقة والذوق الذي عرفوه في الشعر القديم.

([2]) انظر: النقد المنهجي عند العرب، مندور، محمد، دار نهضة مصر الفجالة، القاهرة، ص23.

وقسم ثانٍ يؤثر الحديث الجديد مع احترامه للقديم وعدم التنكر له متتبعاً روح العصر والحضارة الجديدة، فرأوا أنه ليس من الصواب التخندق خلف القديم والالتزام بمبادئه وقواعده التي قعدها اللغويون، سيما أن البيئة التي أوجدت هذا الشعر لم تعد تلك البيئة، وأن تطورات عظيمة أصابت البيئة العربية تحتم على الشعراء مواكبة هذه التطورات والعمل بمقتضاها.

أما القسم الثالث: فقد اتجه إلى الاعتدال والتوسط بين الطرفين المتخاصمين فلم يناصروا طرفا على آخر، فدافعوا عن القديم والحديث معاً، وجعلوا الحكم في الحسن للشعر والشاعر، وليس للمكان والعصر والزمن، وكانت الجودة الشعرية هي المعيار الحكم بين القديم والجديد، فقد انتصروا للمجيدين من الشعراء وشعرهم سواء كانوا متقدمين أم محدثين، ودعوا إلى الالتزام بالموضوعية النقدية وترك الغلو والتعصب، والبعد عن المحاباة والهوى في إصدار الأحكام للشعر أو عليه.

وقد جاءت هذه الدراسة لاستجلاء آراء الناقدين "الجاحظ(ت255هـ) وابن قتيبة (ت267هـ) " وأن نقدم صورة متكاملة في مجال النقد الأدبي القديم ، وتأتي الأهمية في أنها كشفت عن قضايا نقدية جديدة في تراثنا النقدي القديم جديرة بالاهتمام لالتقائها مع مفاهيم نقدية حديثة. واعتمدنا في شرحنا وتحليلينا لمختلف المقولات والآراء النقدية على المنهج الوصفي التحليلي.

وقد بينت الدراسة موقف الناقدين "الجاحظ وابن قتيبة "اللذين لم يتعصبا للقديم ولم يحابيا حديثا لمجرد أنه حديثا ،وإنما حكموا النظرة الموضوعية ،واحتكموا إلى الجودة والرداءة والحذق في الصنعة والإجادة في السبك،

وقد أحدث الجاحظ بتطبيق نظريته مفاهيم قلبت كثيرا من المفاهيم السائدة في النقد العربي القديم، وقد سار على دربه "ابن قتيبة" ، وكانت آرائهما اللبنة الأساسية التي ينطلق منها المبدع إلى التجديد والابتكار، والعمل عل إيجاد جسرا للتواصل بين القديم والحديث لدفع عملية الإبداع ، فلا بد من استيعاب القديم لتمثل الجديد، ، وقد صدق الجاحظ عندما قال:" إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للأخر شيئا، فاعلم أنه ما يريد أن يفلح". وكان لهذه الآراء صدى واسعا في النقد الحديث ،كما يقول: طه حسين "نحن مضطرون لنصل بين القديم والحديث " لأن كل قديم كان حديثا في زمانه ، وكل حديث سيصير قديما".

كلمات مفتاحية: الجاحظ –ابن قتيبة – القديم–المحدث–التعصب –الاعتدال–التجديد

تمهيد:

من المتعارف عليه أن الشعر العربي في العصر الجاهلي قد بلغ قمّة الجودة والنضج والاكتمال، نتيجة سلسلة طويلة من التطورات الفنية المتعاقبة لا نعرفها، وأن السمات العامة والقواعد التي حكمت بنية هذا الشعر قد استقرّت وأخذت الوضع المثالي الذي بموجبه خضع الشعراء له لينسجوا على منواله، وساروا عليه لفترة طويلة استمرت حتى نهاية القرن الهجري الأول، وهي الفترة التي اعتمدها اللغويون والنقاد للاستشهاد بالشعر العربي لتأصيل قواعده اللغوية والنحوية.

وقد أصاب الشعر العربي خلال هذه الفترة، خصوصاً في العصر الأموي نوع من التطور وبرزت أغراض جديدة نتيجة لما أحدثه الإسلام من زعزعة للنظام الاجتماعي الجاهلي.

ورغم هذا التطور إلا أن هندسة القصيدة ووسائل التصوير فيها بقيت على ما كانت عليه في العصر الجاهلي، فالتجديد الذي حصل في العصر الأموي يسير، وأثره في شكل القصيدة وبنائها الفني محدود، ولعل هذا يعود إلى أن العصر الإسلامي امتداد طبيعي للعصر الجاهلي فيما يخص اللغة التي حافظت على نقائها وصفاتها وقوتها وجزالتها.

أما القفزة النوعية الكبيرة في التطور الذي أصاب القصيدة العربية من الناحية الفنية، فقد ظهر في العصر العباسي بعد انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد، والتطور الكبير الذي طرأ على البيئة العربية نتيجة انصهار مختلف الأعراق والحضارات في بيئة علمية لم يسبق لها مثيل في البيئة العربية، هذا الانصهار والتلاقح الفكري هو الذي مهّد الطريق للتجديد في القصيدة العربية ولغتها.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، ما الجديد أو المحدث الذي جاء به الشعراء المحدثون، هل هو شعر مخالف للشعر للعربي التقليدي من ناحية الأغراض والموضوعات والمعاني وطريقة النظم؟ أم أن الموضوعات والمعاني هي هي، إنما ألبسوها ثوباً جديداً يتناغم مع التطور الكبير الذي رافق الحياة العربي في القرن الثاني الهجري.

لقد سار الشعراء الذين حملوا راية التجديد ورأوا ضرورة مواكبة الحياة المتطورة على منوال القدماء في موضوعات الشعر وآلياته، ولكنهم جددوا وابتكروا ضمن الحدود التي رسمها القدماء للشعر، وهذا التجديد يشبه تماماً تغيير شيء بشيء دون المساس بالأصل، فالقدماء عندما وقفوا على الأطلال وناجوا الديار والحبيبة كان هذا من طبيعة البنية التي كانوا يعيشونها، لما اختلفت البيئة على الشعراء المحدثين لم يعد مناسباً أن يقفوا على أطلال غير موجودة، ومن هنا انصرف الشعراء عن هذه الإطلالة إلى إطلالة مستوحاة من البيئة الحضرية والحياة المترفة التي كانوا يعيشونها، وتعكس حياتهم في بغداد والكوفة وعلى ضفاف دجلة والفرات.

لقد نفذ الشعراء العباسيون إلى أسلوب جديد عرف باسم أسلوب المولدين، وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعدة من الذوق الحضري الجديد، أسلوب يحافظ على مادّة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية، ويلائم بينها وبين حياة المجتمع العباسي المتحضرة، بحيث تنفي عنه ألفاظ العامة المبتذلة، كما تنفي عنه ألفاظ البدو الحوشية، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال تختار منه الكلمات كأنما هي جواهر تختار في عقود[3].

لقد بحث الشعراء عن الجمال في الشعر والمعاني، ولم يجدوا نموذجاً يحتذى به إلاّ ما جاء به الشعراء أنفسهم، فالشعر القديم لا يخلو من العبارات الرقيقة والاستعارات الجميلة وضروب البديع الأخرى، فكانت هذه العبارات والألفاظ هي الأساس الذي اعتمد عليه المحدثون في تجويد عباراتهم وزخرفتها وتنميقها، ولكنهم ابتعدوا كثيراً في ضروب الزخرفة المختلفة، وصياغة المعاني المستوحاة من البيئة الحضرية المحيطة بهم، ومن هنا ظهرت لغة جديدة تختلف طبيعتها عن لغة القدماء، وأصبح الشعر عند هؤلاء المحدثين فناً وصنعة تطرب له الآذان، وتلذ لها الأسماع، وتشغف بها القلوب، ومن هنا انطلقت شرارة الصراع بين ما اصطلح عليه اسم القديم والمحدث.

الموقف من القديم والحديث:

القديم والحديث مصطلحان نقديان من مصطلحات القرن الثاني الهجري، اشتغل بهما كثير من علماء العربية وأدبائها، ودار حولهما جدال فكري ونقدي شديد وصل إلى حد الصراع بين أنصارهما والمعارضين لهما، فالقديم الذي يتحدثون حوله هو

([3]) انظر: العصر العباسي، شوقي، ضيف، ص96 وما بعدها.

الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام منتهياً في أوائل القرن الثاني الهجري، أما الشعر المحدث فهو شعر ما عرف بالمولدين الذين ثاروا على نمطية القصيدة الجاهلية وصياغتها وبنيتها الفنية والتي تبدأ ببشار بن برد ومروان بن أبي حفصة وغيرهما من مخضرمي الدولتين[4].

وقد انقسم الرواة والعلماء والنقاد والشعراء ثلاثة أقسام حيال هذه القضية الحيوية التي شغلتهم فترة طويلة، فاللغويون الذين يعدوّن أنفسهم سدنة الشعر القديم وهم الذين أخذوا على عاتقهم جمع اللغة من فصحاء العرب الذين لم يؤثر فيهم روح الحضارة والتغير والتطور الذي أصاب الحضارة العربية، أصبح هذا الإرث اللغوي والأدبي جزءاً من كيانهم، فأخذوا يدافعون عنه، ويعدونه الأساس الذي يجب أن يكون عليه الشعر، لذلك لم يحلفوا بشيء من شعر المولدين والمحدثين، ولم يعدوه من الأشعار التي يستشهد بها، لأنه بعيد عن السليقة والذوق الذي عرفوه في الشعر القديم.

وقسم ثانٍ يؤثر الحديث الجديد مع احترامه للقديم وعدم التنكر له متتبعاً روح العصر والحضارة الجديدة، فرأوا أنه ليس من الصواب التخندق خلف القديم والالتزام بمبادئه وقواعده التي قعدها اللغويون، سيما أن البيئة التي أوجدت هذا الشعر لم تعد تلك البيئة، وأن تطورات عظيمة أصابت البيئة العربية تحتم على الشعراء مواكبة هذه التطورات والعمل بمقتضاها.

أما القسم الثالث: فقد اتجه إلى الاعتدال والتوسط بين الطرفين المتخاصمين فلم يناصروا طرفا على آخر، فدافعوا عن القديم والحديث معاً، وجعلوا الحكم في الحسن للشعر والشاعر، وليس للمكان والعصر والزمن، وكانت الجودة الشعرية هي المعيار الحكم بين القديم والجديد، فقد انتصروا للمجيدين من الشعراء وشعرهم سواء كانوا متقدمين أم محدثين، ودعوا إلى الالتزام بالموضوعية النقدية وترك الغلو والتعصب، والبعد عن المحاباة والهوى في إصدار الأحكام للشعر أو عليه.

من مظاهر التعصب للقديم:

يؤخذ على النقاد الذين تعصبوا للشعر القديم أنهم أخلوا هذه القضية الكبيرة على نطاق الأساس التاريخي، فقد أعادوا القوة والجزالة والجمال إلى العصر الذي قيلت فيه هذه الأشعار، ولم يحكموا على الشاعر أو المادة الشعرية، لأن إبعاد الشاعر وشعره، والاحتكام إلى العصر، فيه من تغلب الشهوة والهوى النفسي، والحسد ما يبعده عن جادة الصواب والوقوع في التناقض، فالنقاد عندما عادوا إلى القديم استخرجوا بعض الأخطاء اللغوية التي وقع بها الشعراء، وكان اللغويون المتعصبون إلى القديم يغضون النظر عنها، ويأخذون بها، وينكرون على المحدثين الوقوع بها، وما أدل على ذلك من قول الخليل بن أحمد الفراهيدي: "أنشدني رجل:" ترافع العز بنا فارفنقعا " فقلت له: ليس هذا شيئاً، فقال: كيف أجاز للعجاج أن يقول: تقاعس العز بنا فاقعنسسا ولا يجوز لي"[5].

ومن مظاهر التعصب للقديم أن بعضهم لا يسمح لنفسه أو لغيره مجرد التفكير في الموازنة والقياس بين القديم والحديث، فابن مناذر يخاطب خلفاً الأحمر أحد رموز القديم: يا أبا محرز: إن يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير فهذه أشعارهم مخلّدة، فقس شعري إلى شعرهم، واحكم فيها بالحق، فغضب خلف وأخذ صحناً مملوءاً مرقاً ورمى به عليه"[6].

([4]) انظر: النقد المنهجي عند العرب، مندور، محمد، دار نهضة مصر الفجالة، القاهرة، ص23.

([5]) النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع، طه، هند حسين، دار الرشيد، الجمهورية العراقية، 1981، ص212، عن رسائل الانتقاد، ص326.

([6]) النظرية النقدية، طه، هند حسين، ص214.

إن الأحكام التي يصدر عنها المتعصبون للقديم كثيراً ما تجانبها العلمية والموضوعية، إذ تعتمد على التعصب المقيت المكشوف لكل ما هو قديم لمجرد قدمه، وهذا صرفهم عن الحاسة الفنية التي تميل إلى الجيد من الشعر فتحكم له بالجمال والحسن، ولا تنظر إلى مكانة الشاعر وعصره، وقد نعى الجرجاني على اولئك المتمسكين بالقديم، المعادين لكل ما هو جديد "وما أكثر من ترى وتسمع منة حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين فإن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث والإقرار بالإحسان لمولد[7].

ويضرب الجرجاني نموذجاً من هذا التناقض لمن يستجيدون الشعر الجديد ويحكمون بجودته وجماله وفي الظاهر يحكمون عليه بالرداءة فيروي أن اسحق الموصلي أنشد الأصمعي:

هـــل إلـــى نظـــرة إليـــك ســـبيل فيـــل الـــصدى ويـــشفى الغليـــل

إن مـــا قـــل منـــه يكـــثر عنـــدي وكثيـــر ممـــن تحـــب القليـــل

فقال الأصمعي: والله هذا الديباج الخسرواني، لمن تنشدني. فقال الموصلي: إنهما لليلتهما، فقال: لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر"[8].

موقف الجاحظ من القديم والحدث:

كان الموقف النقدي السائد قبل دخول الجاحظ معتركه يميل إلى إيثار القديم وإجلاله وتقديسه على حساب الجديد المحدث، الذي ذهب أصحابه بعيداً عما أراده هؤلاء العلماء والرواة والنقاد، فالقدماء " بحكم نعلقهم بمفهوم المحافظة على اللغة وأصولها من عوامل التغيير، حيث عدّوا كل تغيير يطرأ على اللغة عاملاً من عوامل فسادها"[9].

هذه النظرة القاصرة، والمتحجرة اتجاه القديم، رغم أنها صادرة عن علماء اللغة والنحو ورواة الأشعار، إلا أنها لم تجعل الجاحظ يقع أسيراً لها، ويأخذها على علاتها، ويردد ما قاله هؤلاء العلماء، ويغرّد في السرب نفسه، بل لهذا الرجل نظرة شمولية عميقة فيما يدور حوله من التغييرات الحضارية والفكرية والبيئية والثقافية، التي جبل عليها المجتمع العباسي في هذه الفترة، وظهر فيها مثل هذا الصراع.

([7]) الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز بن الحسن، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، وعلي محمد الجبراوي، البابي الحلبي، ط2، 1951، ص50.

([8]) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

([9]) الجاحظ والنقد الأدبي، نجم، وديعة طه، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية العاشرة، 1988، ص44-45.

والواضح أن الجاحظ لم يكن مقتنعاً بأذواق العلماء والنحويين الذين تعصبوا للقديم على حساب الحديث، لأنه ينقصهم الشيء الكثير ليصبحوا من نقدة الشعر وتمييز جيدة من رديئة، وبالتالي فإن أحكامهم يشوبها الخطأ والبعد عن جادة الصواب عند إصدار هذه الأحكام.

يقول الجاحظ ساخرا من قصور تفكيرهم، في الوقت الذي يشيد بالكتاب ويمدحهم – وهو منهم – والحاذقين من الشعراء " ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب، أو معنى صعب يحتاج إلى إعراب، ولم أر غاية رواة الأخبار إلاّ كل شعر فيه الشاهد والمثل"[10].

في الوقت الذي يقلل فيه من قيمة أحكامهم على الشعر والشعراء، وعدم مصداقية هذه الأحكام، لأنه يشيد بالكتاب أصحاب الثقافات المتعددة والعقول النيرة، الذين ينظرون إلى الشعر بحيادية أكبر، ويصدرون أحكامهم بناءً على ما في الشعر من محاسن، وما فيه من جودة "ورأيت عامتهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة، والديباجية الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني الذي إذا صارت في الصدور عمرتها، وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعر أظهر"[11].

لم يعتبر الجاحظ الأدب الجاهلي مثالاً يجب أن يكون سالماً من كل عيب، كما أنه لم ير واجباً على الشاعر أن يصوغ على شاكلته لا يحيد، ولم يرد الجاحظ ذلك، ولم يأخذ به، فهو نفسه قد عاب على المولدين ذلك التكلف الذي يبغون من ورائه تقليد أهل البدو، وبأن المولد يضعف عن ذلك في آخر شعره بعد أن تراه مستجمعاً قوته، قال: "ونقول أن الفرق بين المولد والإعرابي أن المولد يقول بنشاطه، وجمع باله الأبيات اللاحقات بأشعار أهل البدو، فإن أمعن انحلت قوته واضطرب كلامه"[12].

فالجاحظ مع النقاد التوفيقين الذين وقفوا مع الشعر الجيد الحسن بصرف النظر عن العصر الذي قيل فيه، أو الشاعر الذي أنشأه، وكان له، ولمن سار على نهجه الدور الأكبر في تخفيف حدة الصراع بين القديم والجديد، وتقصير مدته، فخفت هذا الصراع وتلاشى بموت دعاه القديم والمتعصبين له، "فهو من النقاد الذين تكافأت لديهم صفتا القدم والحداثة، وهداه ذوقه إلى الجيد في كل منهم، فلا يتحيز لأحدهما على الآخر، إلا بما تفرضه هي نفسه على الأخرى"[13].

فهو بداية يعلن موقفه الصريح، وبكل ثقة وبدون تردد من الشعر القديم والشعراء القدماء، هذا الموقف الحازم الذي لا يقبل الشك والطعن، بأن الشعراء القدامى هم في صدارة شعراء العربية على الإطلاق وأشعرهم، ويبدو أنه لا يجعل مجالاً للمقارنة بين شاعريتهم وشاعرية أهل الأمصار البعيدة عن البادية، وهم وإن كانوا كذلك، فليس هذا حكماً مطلقاً على كل ما جاءت به قرائحهم وجادت، فكما أنهم أجادوا، وأحسنوا، وعبروا فأحسنوا التعبير بألفاظ قوية جزلة، وظهرت معانيهم كأحسن ما تكون، إلا أن هذا لا

([10]) البيان والتبيان، الجاحظ، ج4، ص34.

([11]) البيان والتبيان، الجاحظ، ج4، ص34.

([12]) الحيوان، الجاحظ، ج3، ص132.

([13]) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عباس، إحسان، دار الشروق، عمان، 2006، ص47.

يمنع أن هناك هفوات وزلات وقعوا بها، جعلت بعض ما قالوه لا يرقى إلى المستوى المأمول منهم، وعلى الجانب الآخر شعر محدث لا يقل أهمية وجمالاً عنه، بمعنى أن هذا الميل والحكم بجودة الشعر القديم، لا يستوجب التحيز إلى القديم، يقول في ذلك: "والقضية التي لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها، أن عامّة العرب، والأعراب، والبدو والحضر من سائر العرب، أشعر من عامّة شعراء الأمصار، والقرى من المولدة والثابتة وليس ذلك بواجب لهم على كل ما قالوه[14].

وفي موطن آخر يرى أن من كانت أشعارهم صادرة عن سليقة وطبع (القدماء) وتمكن من أنفسهم ومن أدواتهم الشعرية، لا يمكن أن يكونوا من حيث المقدرة والموهبة، كمن وجد نماذج شعرية راقية أمامه (المحدثون) قرأها وعرف معناها، فأعانته على نسج قصائد جميلة حسنة "فليس من قال الشعر بقريحته وطبعه، واستغنى بنفسه، كمن احتاج إلى غيره، يطرد شعره، ويحتذي مثاله، ولا يبلغ معشاره"[15].

وفي موطن آخر يشيد بجمال الشعر العربي القديم وجودته، وبما ازدان به من الصفات الرفيعة، التي تزينه، مما يعجز أشعر المولدين وأشباههم أن يأتوا بجودته وحلاوته، يقول: "ونحن – أبقاك الله – إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أن ذلك شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك، إلا في اليسير والنبذ القليل"[16].

لقد انتصر الجاحظ للأعراب القدماء، وأنصفهم عندما عرض للظروف القاسية التي كانوا يعيشونها الحياة المرة التي كانوا يتجرعون قساوتها، وهم مع ذلك قد انتجوا هذا التراث الشعري العظيم، الذي انتزعوا مفرداته وألفاظه ومعانيه وصوره من تلك البيئة القاسية، التي لم يجدوا فيها النضارة والحلاوة التي رآها المحدثون وعاشوها.[17].

إن إشادة الجاحظ بالقديم من الشعر وأهله وإعجابه بهما لا يعني أنه انحاز إليه، ووقف بمواجهة الشعر المحدث وأهله.

لقد تجرد الجاحظ من العصبية بجميع صورها وأشكالها، عندما انتصر للجودة والجمال في الشعر، وأهمل العصر والمكانة التي كان يحتلها الشاعر في عصره "فوضع المولدين على قدم المساواة أيضاً من حيث الإجادة، كما وضع القدامى على قدم المساواة أيضاً من حيث الخطأ أحياناً وعدم الإصابة، وأردا أن ينبه إلى أحكام رواة الأدب بأنهم غير مصيبين، وأن أحكامهم في شعر المولدين غير مقبولة[18].

([14]) الجاحظ، عمر بن بجر، تح: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1996، ج3، ص130.

([15]) رسائل الجاحظ، الجاحظ، تح: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964، ج2، مفاخرة الجواري والغلمان، ص116.

([16]) البيان والتبيان، الجاحظ، تح: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003، ج3، ص18-19.

([17]) انظر، رسائل الجاحظ، الجاحظ، مرجع سابق، ص116-117.

([18]) النقد المنهجي عند الجاحظ، سلوم، داود. مكتبة النهضة العربية، دار الكتاب، بيروت، ط2، 1986، ص56.

وهو ينعى عن أولئك الذين يتشدقون بألسنتهم ويعيبون الشعر الحدث، ولا يعترفون بجودته وحسنه، خصوصاً من الرواة الذي تقصر أفهامهم وأذواقهم عن تمييز الجيد من الرديء، ولو أنهم نظروا بعين صادقة وحيادية في هذا الموضوع، لميزوا الجميل والحسن بغض النظر عن العصر الذي قيل فيه " ولقد رأيت أناساً (منهم) يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في رواية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان، وفي أي زمن كان"[19].

يضع الجاحظ معياراً دقيقاً للتفاضل بين القديم والحديث، وهذا المعيار يتضمن مجموعة من السمات والخصائص الفنية، التي إن اجتمعت في الشعر كان الشعر جيداً وقوياً وحسناً سواء صدر من شاعر قديم أم من شاعر محدث، فالمعول على ذلك "إنما يقع على إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج وجنس من التصوير"[20].

لقد طبق الجاحظ نظريته هذه أصدق تطبيق، فهو لم يتحيز إلا للجيد من الشعر قديمه وحديثه، والمتتبع لمؤلفاته الكثيرة، يجد أن الأشعار التي اختارها ووظفها ليست مقتصرة على عصر دون آخر، وعلى الشعراء القدماء دون المحدثين، بل وازن في اختياراته بين القديم والمحدث، وهو في هذه الاختيارات يوازن ويدقق ويصدر حكماً لها أو عليها، مبيناً مواطن الإجادة ومواطن القصور، ومن هذه النظرة فضل الجاحظ أبا نواس وقدمه في أبيات قالها على مهلهل بن ربيعة الشاعر الجاهلي، في أبيات له في معناها، فقد وازن بين الشاهدين القديم والمحدث، وهداه ذوقه وحسه الفني إلى تقديم المحدث على القديم، رغم علمه بأن هناك من سيقف في وجه هذا القديم والإشادة بالمحدث. يقول الجاحظ: "وأبيات أبي نواس على أنه مولد شاطر، أشعر من شعر مهلهل في إطراق الناس في مجلس كليب"[21].

ولم يكتف الجاحظ بهذا، بل اختار عشراً من الطرديات التي قالها أبو نواس في وصف كلاب الصيد يرى بأنها من أجود الشعر العربي في هذا الموضوع، فجعله في صدارة هذا الفن من القول، سواء تقدم أم تأخر، ولم يكتف بالاختيار الحسن، بل علل اختياره هذا الاعتماد على الجودة والحسن اللذين ظهر بهما هذا الشعر، فوصف أبا نواس "له معارف لا تعرفها الأعراب، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك، والحذق بالصنعة، وإن تأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك فيه عصبية، أو ترى أن أهل البدو أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك، فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً"[22].

ومن هذا النص الجاحظي يتبين لنا فداحة الخطأ في المعيار الذي اعتمد عليه المنادون بتقديم القديم لأنه قديم وكفى، دون النظر إلى النواحي الفنية التي يتضمنها الشعر.

([19]) الحيوان، الجاحظ، ج3، ص130.

([20]) الحيوان، الجاحظ، ج3، ص131 – 132.

([21]) الحيوان، الجاحظ، ج3، ص129.

([22]) الحيوان، الجاحظ، ج2، ص27.

ومن هنا فإن الجاحظ لم يهضم النواسي حقه في الإعلان عن جيد شعره، بل وتفضيله على شعر القدماء، بما امتلك من السمات والخصائص التي قصر عنها أولئك القدماء، ويؤكد على أن كل من لم ير فيه هذا الجيد فإنه مناف للحقيقة، متعصب للقديم تعصباً أعمى، ولا يوجد عنده ذائقة شعرية في التمييز بين الجيد والرديء.

ورغم العداء الشديد الذي كنه بشار للمعتزلة أصحاب الجاحظ وأساتذته وآرائهم، إلا أن هذا لم يمنع الجاحظ من الإشادة الشديدة، والإعجاب الكبير بشعره، بل قرنه بشعر الأعشى من ناحية صوره الشعرية، وقدرتهما على التشبيهات الموفقة، ولإعجابه بشعره فقد أورد له أشعاراً كثيرة مستجدة "وهكذا يعبر الجاحظ عن موضوعيه فريدة في أحكامه النقدية، سواء ما يتعلق منها بالقدماء أو المحدثين، أو حتى أصحاب المذاهب المخالفة[23].

ومن مظاهر الإنصاف والاعتدال عند الجاحظ، وتقديمه الجيد والحسن بغض النظر عن منشئه عندما استعرض أقوال الشعراء في نسر لقمان، فذكر من جيد الشعر قول النابغة:[24]

أضـــحت خـــلاءً وأمســـى أهلهـــا احتملـــوا أخـــنى عليهـــا الـــذي أخـــنى علـــى لُبـــدِ

وقول لبيد[25]:

ولقـــد جـــرى لبـــد فـــأدرك جريـــه ريـــبُ الزمـــان وكـــان غـــير مثفـــل

لمـــا رأى لُبـــد النســـور تطـــايرت رفـــع القـــوادم كـــالفقير الأعـــزل

وحتى لا يظن ظان أن الجاحظ يختار ما جاد من شعر القدماء، ويهمل شعر المحدثين يقول: "وإن أحسنت الأوائل في ذلك، فقد أحسن بعض المحدثين وهو الخزرجي في ذكر النسر وضرب المثل به وبلبد، وصحة بدن الغراب، حين ذكر طول عمر معاذ بن مسلم بن رجاء وهو قوله:[26]

إن معـــــاذ بـــــن مســـــلم رجـــــلٌ قـــد ضـــجَّ مـــن طـــول عمـــره الأبـــدُ

قـــد شـــاب رأس الزمـــان واختضـــب الـــدهر وأثـــواب عمـــره جـــددٌ

يـــا نســـر لقمـــان كـــم تـــعيش وكـــم تلـــبس ثـــوب الحيـــاة يـــا لُبـــدُ

(23) الجاحظ والنقد الأدبي، نجم، وديعة طه، ص56-57.

(24) الحيوان، الجاحظ، ج6، ص326.

(25) الحيوان، الجاحظ، ج6، ص326.

(26) الحيوان، الجاحظ، ج6، ص327.

وفي موطن آخر يشيد بشعر مسلم بن الوليد في ذكر الطيور فيقول" وقد أكثر الشعراء في هذا الباب (باب الثعالب والنسور والضباع) حتى أطنب بعض المحدثين وهو مسلم بن الوليد، فقال[27]:

يكســـــو الســـــيوف نفـــــوس النـــــاكثين بـــــه ويجعـــــل الهـــــام تيجـــــان القنـــــا الـــــذبل

قـــــد عـــــود الطـــــير عـــــادات وثقـــــن بهـــــا فهـــــن يتبعنـــــه في كـــــل مرتحـــــل

من كل ما سبق فالجاحظ كان صادقاً مع نفسه، وصادقاً مع المبدأ الحيادي الذي سار عليه، وصادقاً مع العدل والإنصاف، فلم يقل في الشعر والشعراء إلا ما فيهم، فأعطي كل شاعر ما يستحق، لا لكون هذا الشاعر عربياً وذلك مولداً، ولا هذا جاهلياً وذاك إسلامياً، ولا هذا مرغوباً في عقيدته وذاك مخالفاً لعقيدته وفكره، بل لكون الشعر يعلن عما به من جمال وجوده، أو قبح ورداءة.

لماذا اتجه الجاحظ إلى الاعتدال في قضية القدم والحداثة

مر بنا أن الجاحظ لم يكن من دعاة القديم والالتزام بمسلكهم، ولم يتعصب لهم، وفي الوقت نفسه لم يقف مع المحدثين الذين عاصروه، بل اتخذ موقفاً وسطاً بين دعاة المحافظة على القديم ودعاة التجديد والتغيير.

وقد يكون من أهم الأسباب التي حدت به لاتخاذ هذا الموقف المعتدل من هذه القضية هو فكره الاعتزالي الذي كان الجاحظ من أبرز منظريه والدعوة إليه، فقد كان موقف الجاحظ هذا صدى لهذا الفكر من ناحيتين:

الأولى: تقديم العقل على النقل: فلم يكن الجاحظ ناقداً تقليدياً يأخذ آراءه من الآخرين على علاتها دون مناقشة أو تحليل لاتخاذ موقف منها، فكان يدقق في هذه الآراء، ويعرضها على ميزان عقله وفكره وثقافته، فما لاءمه أخذ به دون أن يكون صورة عنه، وما لم يلائمه يطرحه وينقده ويبين مدى الخطأ فيه، وينجلي هذا بوضوح في موقفه من شعر المحدثين، مخالفاً آراء النقاد التقليديين الذين عابوه، ولم يكترثوا لوجوده[28].

الثانية: المنزلة بين المنزلتين: وهو الموقف المعتدل الذي اتخذه المعتزلة في حكم الفاسق في الدنيا هل يسمى مؤمناً أم لا، ويبدو التأثر بهذا الفكر واضحاً في موقف الجاحظ من قضية القديم والمحدث، فعندما يتحدث الجاحظ عن الشعر القديم نحس أنه منحاز إليه، وعندما يتحدث عن المحدث لا تشك للحظة أنه منحاز إليه، ولكن الحقيقة أن الجاحظ لم ينحز لا إلى هذا ولا إلى ذاك، بل انحاز إلى الشعر الجميل الراقي الحسن الذي تطرب له الآذن ويملأ العقول والقلوب، بصرف النظر عن قائله، فقد أشاد بالشعر القديم مثلما أشاد بالشعر المحدث، وفي الوقت نفسه عندما انتقد بعض المحدث وأبان عن عيوبه

([27]) الحيوان، الجاحظ، ج6، ص324.

([28]) انظر: الجاحظ والنقد الأدبي، نجم، وديعة طه، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية العاشرة، 1988، ص9.

لم يسلم الشعر القديم من نقده، وهكذا مهد الجاحظ الطريق لتغيير النظرة النقدية لكل من القديم والجديد، وعمل على تغيير معايير المفاضلة عند النقاد وحيث برز هذا المنهج واضحاً عند جميع النقاد الذين جاءوا بعده.

فهذان المبدآن من مبادئ المعتزلة كان لهما الدور الكبير في نظرة الجاحظ إلى القدماء والمحدثين.

2. الجاحظ من المعتزلة بل من شيوخ المعتزلة، ومن ضمن المبادئ الأساسية التي اعتمدوها في الحكم على الشعر إيمانهم الراسخ "بأن الشعر العربي من مصادر المعرفة الكبرى ووعاء لها"[29]، ومن هنا فليس من الصواب أن يتخذ الجاحظ موقفاً منحازاً إلى القديم أو الحديث لإرضاء طائفة على أخرى، أو معاندة جهة على حساب جهة أخرى، بل اختط هذا النهج وفق ما يحقق له إيمانه واعتقاده، فلو نحا المنحى الذي يسيره أصحاب القديم، لفاته كثير مما جاء به المحدثون من معارف عامة، ولما استطاع أن يغني المكتبة العربية بهذه الكتب القيمة والعظيمة، وكذلك لو احتقر القديم ولاذ بالمحدث الذي جاء به شعراء عصره ونقاده لفاته علم لا يعوض، ومن هنا فإن اعتبار الجاحظ الشعر من مصادر المعرفة حتم عليه أن يأخذ هذه المعرفة من أي مصدر كان سواء كان قديماً أم حديثاً.

3. يعد الجاحظ من أكثر علماء عصره ونقادهم في الاطلاع على الثقافات المختلفة، والتأثر بها، فهو رجل يملك ذوقاً خاصاً، وثقافة شاملة، وملكات عقلية متنوعة، تأثر بالثقافات الأجنبية التي دلقت إلى الثقافة والحضارة العربية، ورأى – بحسه المرهف – ما لهذه الثقافات من دور في تطوير المأثور من القديم دون التخلي عنه، وحاجة المجتمع الحضري الجديد إلى مواكبة الأدب لمثل هذه التطورات، والابتعاد عن التمسك بالقديم وصوره، بل تطويرها بما يناسب البيئة الجديدة، ومن هذا المنطلق يتحاشى أن تنحاز ثقافته ومعرفته وذوقه إلى جهة دون أخرى، وهو العالم الذي يحتاج الى كل شيء لمواكبة تطوره الثقافي والاستزادة منه، فلذلك اتخذ هذا الموقف التوفيقي بين القديم والجديد، فالحنين إلى القديم والإعجاب به لا يعني أنه تناسى الجديد وما به من محاسن ومعارف وجودة ، ربما لا يقل عن القديم في شيء إن لم تكن أجمل منها وأحسن.

4. لم يكن الجاحظ متخصصا دقيقا في حقل من حقول المعرفة، بل هو موسوعة علمية اشتهر في كل فن، وتخصص بكل أنواع المعارف، فهو أديب ومتكلم وناقد اجتماعي وناقد أدبي ومؤرخ، وفيلسوف، اطلع على علوم الأمم الأخرى، وتأثر بها، فخرج هذا العقل النير الذي لا يتقوقع حول فكرة يناطح غيره ويتزمت عندها.

5. ينبغي لمن يتولى مهمة النقد ان لا يكتفي بأدوات الناقد القديم من معرفة باللغة والنحو والبلاغة فحسب، لأنه بذلك يكشف عن خطأ اللفظة، او اكتشاف ركاكة العبارة، بل عليه أن يتسلح بثقافة عامة تجعله في مستوى يؤهله إلى فهم الأثر الأدبي، حتى لا يغيب عنه جانب من جوانبه، إلى جانب هذه البديهيات يجب عليه أن يكون ذا شخصية تتمتع بالذوق والذكاء والشجاعة ، وتلم بعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة والمنطق وتاريخ الفكر، وتعتمد على علم الجمال[30]، واذا دققنا النظر في هذه السمات وجدنا أكثرها يتوفر في شخصية الجاحظ الموسوعة، وشخص يحمل كل هذه المؤهلات، وهو لم يحوِ كل هذه المؤهلات ليقول للناس أن القديم هو الأفضل لمجرد أنه قديم دون توضيح أكثر للأسباب التي تجعله يميل الى ذلك أو العكس.

([29]) تاريخ النقد الأدبي عباس، إحسان، عند العربي، ص56.

([30]) انظر: البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين، صباغ، محمد علي ذكي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص1، 1988، ص85-86.

موقف ابن قتيبة من القديم والحديث

يؤكد ابن قتيبة المنهج الذي يسير بمقتضاه عندما يقف حكما بين الشعر القديم والشعر المحدث، فهو لن يتأثر بالأقوال والاثار السابقة التي صدرت عن علماء اللغة ونحاتها، وحتى النقاد الذين سبقوه كابن سلام مثلا في طبقاته الذي يشير تقسيمه للشعراء بالطريقة التي قسمهم بها باستثناء المحدثين من الإجادة في قول الشعر، فهو لن يكون تابعا لأحد منهم، وما يصدر عنه من آراء فهي آراء شخصية مستقلة عن أي تأثير خارجي، أملاها الواقع الذي كان يعيشه.

فأحكامه سوف تكون مجردة من أية اعتبارات أخرى غير النص الذي أمامه، فالنص نفسه هو الذي يكشف أن كان هذا الشعر حسنا، جيدا أو غير ذلك.

فقد خاض السابقون كثيرا في هذه القضية – قضية القدم والحداثة- في أيهما أحسن وأجمل، القديم بما له من هيبة وقداسة، أم الجديد بما فيه من خفة ورشاقة، ولم يصلوا إلى قرار قاطع، فالكل مغمض عينيه عن الجوانب المضيئة والمشرقة في الجانب الآخر، ولا يرى إلا القبح فيها، والكل مصر على رايه ويدافع عنه، يصيب حينا ويخطئ أحيانا، فجاء ابن قتيبة ليدلي بدلوه في هذه القضية ويقف على الحياد، فينصب من نفسه قاضيا عادلا، ينظر بعين العدل والانصاف إلى الفريقين، فيعطي كل ذي حق حقه، مستثنيا تماما المعيار السابق الذي كان سائدا وهو القديم من حيث هو قديم فقط، والمحدث كونه محدثا وكفى، ليزيل من العقول المتعصبة التي ترى في القديم الهيبة والجلالة والقداسة، وتنظر الى المحدث نظرة تعال وريبة" فإن أصابوا فقد سبقوا إليه وإن اخطأوا فمن أنفسهم".

ينادي ابن قتيبة بالفصل بين الشعر وزمن قائله، فلا يحكم على الشعر بالقبول والاستحسان لان قائله يعيش في زمن معين، بل يجب أن يحكم له أو عليه لجودته أو لقبحه، أن يقدر بمقدار ما حوى من عناصر الجمال التي تسمو به وتميزه عن سواه.

فهو مع الشعر الجيد بغض النظر عن زمانه وقائله، فهو يقرر أن " النص الأدبي ينبغي أن يقدر بمقدار ما حوى من عناصر الجمال التي تسمو به، وتميزه عن سواه، وصرف النظر عن سائر الاعتبارات الأخرى، فلا ينظر إلى قائله، ولا يقدر على حسب قائله، بل يكون الاستحسان والاستهجان مبنيا على التذوق الشخصي وعدم التأثر بآراء الغير"[31].

يتبدى هذا من قول ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء عندما يؤكد انه لم يسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلا المتقدم بعين الجلالة لتقدمه، ولا إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، واعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه"[32].

وهو بهذا يشير الى ما سار عليه العلماء والنقاد الذين سبقوه، وجعلوا من القديم معيارا اوحدا ضيقا جامدا يجافي الحقيقة والجمال الشعري، لتفضيل الشعر والإشادة به وبشاعره، وينأى ابن قتيبة بنفسه عن هذا المنهج الذي يخالف طبيعة التطور الذي يصيب الشعر كغيره من أسباب الحضارة الأخرى وطبيعة المعارف الإنسانية التي خص الله بها الجميع، ولم يحصرها في زمن معين

([31]) دراسات في نقد الشعر الأدبي، طبانه، بدوي، دار الثقافة، بيروت، ط6، 1974، ص214.

([32]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تح: احمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1966، ص62-63.

وأشخاص بأسمائهم "وإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر لتقدم قائله، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائلة"[33].

فالجودة والفضل والحسن في الشعر، ولا يخص عصر دون عصر، فلا يخلو عصر من وجود الشاعر المجيد الى جانب الشاعر الرديء، فالجودة والرداءة تعود إلى الشاعر نفسه والشعر الذي ينشده، وليس إلى العصر "ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً بين عباده في كل دهر"[34].

لقد أعلن ابن قتيبة أنه مع الشعر الحسن، ولم يجعل للقديم فضلاً لمجرد أنه قديم، ولم يُنزل من قيمة المحدث كونه محدثاً وكفى، ولم يجعل اعتباراً للمكانة والسن في تقديم أحدهما على الآخر، ومن هنا يؤكد أن " كل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا عليه به، ولم يضعه عندنا تأخر قائله، ولا حداثة سنه، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه"[35].

يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن ابن قتيبة وقع في تناقض صارخ عندما أعلن في كتابه الشعر والشعراء أنه "ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على لمياه العذاب الجواري لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطولي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة"[36].

فالمعنى الظاهر من وراء قول ابن قتيبة أنه يقف موقفاً صلباً ضد التجديد والتغير في نمط القصيدة الجاهلية، فلا يجيز للمتأخرين من الشعراء أن يخرجوا على مذهب المتقدمين.

إلا أن ما قصده ابن قتيبة ودعا إليه أن لا تسير القصيدة عن الواقع الفكري والثقافي والحضاري الذي بعيشه الشاعر المحدث.

ويطلب إليه أن لا تتماها قصيدته مع قصيدة القديم في أقسامها: الوقوف على الأطلال ومناجاة الحبيبة والنسيب والرحلة ثم الوصول إلى الممدوح حتى لو لجأ إلى تبديل صورة جديدة منتزعة من الواقع الذي عاشه القدماء، كأن يبكي على القصور بدلاً من بكاءه على الأطلال، ولا يرحل على حمار أو يغل بدل من الناقة ولا يقطع إلى الممدوح وفي يده الورد والنرجس بدلاً من الشيح، فهذا ليس تجديداً بل تغيير ديباجة جديدة بأخرى قديمة، يؤكد هذا ما أشار إليه ابن قتيبة عندما حظر على المحدثين اتباع القدماء في

([33]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص63.

([34]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص63.

([35]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار إحياء العلوم، راجعه وأعد فهارسه محمد عبد المنعم العريان، ط2، 1986، ص 63 – 64.

([36]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص32.

استخدام بعض الألفاظ التي تدل البيئة الجاهلية المختلفة تماماً عن البيئة الحضرية" وليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي الكلام، الذي لم يكثر، ككثير من أبينة سيبويه، واستعمال اللغة القليلة في العرب"(37).

فالشاعر إذا طمح إلى التجديد وسعى إليه فيجب أن يطال التجديد القصيدة برمتها بناءً وفكراً ومعنى فلا يلجأ إلى الشكل والبناء القديم ويقحم فيه معانٍ مختلفة عما جاء بها القدماء، وبما تفرضها طبيعة الحياة والحضارة الجديدة، وإذا ما أراد الشاعر المحدث أن يتبع هذا الأسلوب القديم فلا يخرج عن كونه اعتراف به وثناء عليه ورمز من رموز الأدب العربي الذي يعتز به الشاعر.

وجملة القول أن ابن قتيبة يرى أن الشاعر المحدث إذا أراد أن يغير صورة بصورة فقط الأولى أن يحافظ على الصورة الهيكلية للقصيدة الجاهلية لأنها صورة تنطق بالمعاني الجميلة والعبق الطيب وتشير إلى رموز خاصة عند الجاهليين القدماء، ويبعد عن استحضار صورة خالية من تلك المعاني(38). ومن هنا لا تناقض أو اضطراب في منهج ابن قتيبة ونظرته إلى القديم والمحدث.

لم يتوقف ابن قتيبة عند الشعراء القدماء وحسب كما فعل ابن سلام الذي أخرج المحدثين من طبقاته وكأنهم خارج تاريخ الشعر العربي وأطواره المتتابعة، بل ترجم لمن سُمُّوا بالمحدثين واقتبس من شعرهم، وسجل ملامحهم العامة في حياد علمي هادئ.(39).

والمتتبع لتراجم ابن قتيبة من الشعراء والمحدثين يلاحظ مدى احتفائه بهم عندما يختار من أشعارهم فتجده يعلي من قيمة المجيدين منهم وينتصر لهم ويدافع عنهم، فأبو نواس في رأي ابن قتيبة "أحد المطبوعين ... وكان متفنناً في العلم، قد ضرب في كل نوع منه بنصيب"(40).

ومن إعجاب ابن قتيبة له أنه كان يشير إلى المعاني اللطيفة التي سبق إليها أبو نواس سائر الشعراء، من مثل قوله في إبليس(41).:

دبّ لـــــــه إبلـــــــيس فاقتـــــــاده	والشـــــيخ نفـــــاع علــــى لعنتــــه
عجبـــــت مـــــن إبلـــيس في تيهـــه	وعظـــم مـــا أظهـــر مـــن نخوتـــه
تـــــاه علـــــى آدم في ســـــجدةٍ	وصـــــــار قـــــــواداً لذريتـــــــه

وأثنى على كثير من الأشعار التي يرى أنه له قصب السبق إليها بالإضافة إلى المعاني الجميلة ومن مظاهر إعجاب ابن قتيبة بأبي نواس ومسلم بن الوليد أئمة التجديد والسخرية من القديم موقفه من الشعر الذي طعن كل منهما بصاحبه وأظهر عيوبه، فقد

---

(37) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تح: أحمد محمد شاكر، ص101.

(38) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عباس، إحسان، مرجع سابق، ص100-101.

(39) انظر: مقدمة النقد الأدبي، عبدالله، محمد حسن، دار البحوث العلمية، 1975، ص539.

(40) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار إحياء العلوم، راجعه واعد فهارسه محمد عبد المنعم العريان، ط2، 1986، ص544.

(41) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، المرجع السابق، ص557.

عقب ابن قتيبة على البيتين مدار الملاحاة بينهما فقال "والبيتان جميعاً صحيحان، ولا عيب فيهما، غير أن من طلب عيباً وجده أو أراد إعناتاً قدر عليه، إذا كان متحاملاً متحيناً غير قاصد للحق والإنصاف"[42].

ومن هذا الكلام لابن قتيبة تراه وقد نصب نفسه دافعاً عن المحدث، مقللاً من قيمة ما كان يرمي به المحدثون من قبل المتعصبين للقديم، وكأنه يقول: أن نظرة المتعصبين إلى القديم تنقصها الموضوعية والحيادية، وفيها من التحامل الواضح الذي لا يقوم على أسس عادلة.

وفي الوقت الذي أشاد بشعر المحدثين، فإن شعر القدماء لم يسلم من نقده وإبداء الملاحظات الموضوعية عليه، فمن نقده للشعر القديم الذي لم يوافق ذوقه قول المرقش[43]:

هـــــل بالـــــديار أن تجيـــــب صـــــمم لـــــو أن ناطقـــــاً حيـــــاً كلّـــــم

يـــــأبى الشـــــباب الأقـــــورين ولا تغـــــبط أخـــــاك أن يقـــــال حكـــــم

فيقول فيه: والعجب عندي أن الأصمعي إذ أدخله في متخيره، وهو شعر ليس بصحيح الوزن، ولا حسن الروي، ولا متخير اللفظ، ولا لطيف المعنى، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله:

النشـــــر مســـــك والوجـــــود دنـــــا نـــــير وأطـــــراف الأكـــــف عَـــــنَم

يرى ابن قتيبة أن الحكم على جودة الشعر أو عدمه يقف وراءه مجموعة من الاعتبارات، وهذه الاعتبارات ليست مقصورة على القدماء، فهي مشاع يشترك فيها القديم والمحدث "فليس كل الشعر يختار على جودة اللفظ والمعنى ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب منها الإصابة في التشبيه"[44].

ثم يورد أشعاراً لقدماء ومحدثين يرى أنهم قد أصابوا بها التشبيه وأجادوا، فالشاعر إذا أصاب التشبيه فهو مقدم سواء قديماً أو محدثاً، وهذا هو العدل عينه الذي أخذ به نفسه في الحكم على القديم والحديث، وهو بهذا قد عدل من ظلم المعيار الذي اتخذه القدماء في الحكم على جودة الشعر.

ويقول في موضع آخر" وقد يحفظ ويختار على خفة الروي"[45] وذكر أشعاراً " وقد يختار ويحفظ أن قائله لم يقل غيره. أو لأن شعره قليل عزيز كقول عبدالله بن ابي سلول المنافق"[46]:

([42]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص550.

([43]) الشعر والشعراء، تح: محمد عبد المنعم العريان، ص30.

([44]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص37.

([45]) السابق، ابن قتيبة، ص37.

([46]) السابق، الصفحة نفسها.

مـــتى مـــا يكـــن مـــولاك خصـــمك لا تـــزل تـــــذلُّ ويعلـــــوك الـــــذين تصـــــارع

وهـــــل يـــــنهض البـــــازي بغـــــير جناحـــــه وإن قـــــصّ منـــــه ريشـــــه فهـــــو واقـــــعُ

"وقد يختار ويحفظ لأنه غريب في عناه كقول أحدهم في مجوسي"[47]:

نهـــــدت عليـــــك بطيـــــب المشـــــاش وأنـــــك بحـــــر جـــــواد خضـــــم

وأنـــــك ســـــيد أهـــــل الجحـــــيم إذا مـــــا ترديـــــت فـــــيمن ظلـــــم

قـــــــرين لهامـــــــان في قعرهـــــــا وفرعـــــــون والمكتـــــــنى بـــــــالحكم

"وقد يختار ويحفظ لنبل قائله كقول المأمون في رسول"[48]

بعثتـــــك مشـــــتاقاً فغـــــرت بـــــنظرة وأغفلتـــــني حـــــتّى أســـــأت بـــــك الظـــــنّا

وناجيـــــت مـــــن أهـــــوى وكنـــــت مقرّبـــــاً فيـــــا ليـــــت شـــــعري عـــــن دنـــــوك مـــــا أغـــــنى

وردّدت طرفـــــاً في محاســـــن وجههـــــا ومتعـــــت باستمـــــاع نغمتهـــــا أذنـــــا

أرى أثـــــراً منهـــــا بعينيـــــك لم يكـــــن لقـــــد ســـــرقت عينـــــاك مـــــن وجههـــــا حســـــنا

لقد جاء ابن قتيبة بكل هذا الحسن والجيد، واختار قائليه من القدماء والمحدثين، ليثبت للفريقين كليهما أن الجميل والجيد من الشعر لا يخص فئة دون اخرى، أو زمن دون آخر، فكما أجاد القدماء وأحسنوا، فقد اجاد المحدثون وأحسنوا بالقدر نفسه، أليس ما قاله ابن سلول المنافق الذي يعد قديماً في غاية الروعة والجمال في موضوعه، ثم أليس ما قالهُ المأمون المحدث في قمة الروعة والجمال في موضوعه أيضاً؟

إذا كان ذلك كذلك، فلماذا هذا التعصب للقديم والتحزب للمحدث، ما دام الشعر الجميل ليس له وطن أو عصر أو أب إلا بقدر الجودة التي جاءت به، وإذا كان أصحاب القديم أشادوا بالشعراء المتكلفين وبشعرهم لشد عنايتهم به، فإن ابن قتيبة لا

([47]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تح: العريان، ص38.

([48]) الشعر والشعراء، ص39.

يجعل هذا معياراً صائباً دائماً، فبعض التكلف ينزل بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه"[49] وضرب أمثلة على شعر المتكلفين من القدماء وقد ظهر فيه التوعر.

ومما يدل على صدق نظرة العدل والإنصاف التي ادعى ابن قتيبة أنه سيسير بهداها، وأنه سيختار الشعر الجيد بغض النظر عن قائله، مقارنته بين شعر قديم وشاعر محدث" فكان الناس يستجيدون للأعشى قوله:

وكـــأس شربـــت علـــى لـــذّة وأخـــرى تـــداويت منهـــا بهـــا

حتى قال أبو نواس:

دع عنـــك لـــومي فـــإن اللـــوم إغـــراء وداوني بـــالتي كانـــت هـــي الـــدّاء

فسلخه وزاد فيه معنى آخر، اجتمع له بالحسن في صدره وعجزه، فللأعشى فضل السبق إليه ولأبي نواس فضل الزيادة فيه"[50] هذا هو العدل والإنصاف عينه، الصادر من ناقد فقيه، لم يؤثر فيه ما عرف به أبو نواس من انحراف وتجاوز عن أن ينصفه ويحكم له بالإجادة.

ومن الأسباب التي دفعت ابن قتيبة إلى تبني موقف العدل والإنصاف عند النظر إلى القديم والحديث ثم الحكم لكل منهما أو عليهما، أن ابن قتيبة فقيه متأثر بروح الإسلام، يميل نحو المساواة ومبدأ الإسلام "إن أكرمك عند الله أتقاكم" فهذا المبدأ المتحرر من كل اعتبار آخر إلا التقوى، أخذه ابن قتيبة وطبقه على الشعر، فلم يعتمد الموروث الذي قدسه الآخرون، ورفضوا الخروج عليه واعتباره الحسن الجيد دون غيره، فابن قتيبة له ذوقه الخاص الذي ينبع ذائقته هو، وليس ما يردده الآخرون، واعتماده دون تفكير أو إعمال نظر، فابن قتيبة اتخذ هذا العقل المتزن، ولم يفضل قديماً على جديد إلا بما حواه من حسن وجمال يعود إلى أنه فقيه في الدين عالم باللغة، ورأيه منسجم مع رأي الدين الذي يدعو إلى الوسطية في مثل هذه الأمور.[51]

لقد نظر ابن قتيبة الى ما كان يجري على الساحة النقدية من انحياز إلى القديم أو الحديث والتعصب لهما ورأى أن كلا الجانبين قد انحرف عن الصواب باتخاذه موقفاً أساسه الهوى والتشيع لفكرة أو رأي محدد والبعد عن الروح العلمية التي يجب أن تكون حاضرة في مثل هذه المواقف، فرأى أنه من أراد التصدي لقضية كبيرة كالنقد عليه أن يتسلح بالمرونة وروح العلم الذي يقتضي من الناقد أن يكون متجرداً من كل هوى أو ميل عاطفي، إذا أراد أن يكون له دور مؤثر في الساحة النقدية، لذلك اتخذ ابن قتيبة في منهجه النقدي سبيل العلم في الدقة والتحديد بحيث يحلل الشعر إلى عناصره، وحصر حالات كل عنصر، وينظم ما عرف من الآراء والأفكار التي سبقته في هذا المضمار ليضعها في أصول عامة وقواعد عامة، ليستخلصها الناقد من بحثه الدقيق لتكون ضوابط وقيوداً محدودة ومحصورة يسهل عليه أن يحللها ويتذوقها، وبالتالي يحكم عليها أو لها[52].

([49]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص40.

([50]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص73.

([51]) النقد المنهجي عند العرب، مندور، محمد، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ص23.

([52]) انظر: تاريخ النقد الأدبي، ابراهيم، طه أحمد، ص117.

كان ابن قتيبة عالماً موسوعياً، لم يقتصر على علم محدد، فهنو فقيه وعالم له حظ كبير من العلوم الشرعية والدينية، وله عناية بالأدب واللغة والثقافات الأجنبية التي انتشرت في عصره، ومن يمتلك تلك المعارف والعلوم والثقافات لا بد أن يكون له ذوق خاص إذا أراد أن يتصدى للنقد الأدبي.

بالإضافة إلى ما سبق فإن ابن قتيبة قد سار على النهج نفسه الذي سار عليه الجاحظ الذي يعتبر بحق أول من نادى بالنظرة الموضوعية عند النظر إلى الشعر وتمييزه جيده من سواه ورجل كالجاحظ بما تميز به لا بد أن يكون قدوة لمن جاء بعده، وهو ما تم بالفعل.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم، طه أحمد. تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2003.
2. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1966.
3. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، راجعه وأعد فهارسه محمد عبد المنعم العريان، ط2، 1986.
4. الجاحظ، الحيوان. تح: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1996.
5. الجاحظ، رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964، ج2، مفاخرة الجواري والغلمان.
6. الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003.
7. الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز بن الحسن، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد ابو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، البابي الحلبي، ط2، 1951.
8. سلوم، داود، النقد المنهجي عند العرب، مكتبة النهضة العربية، دار الكتاب، بيروت، ط2، 1986.
9. صباغ، محمد علي ذكي، البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1988.
10. طبانة، بدوي. دراسات في نقد الشعر الأدبي، دار الثقافة، بيروت، ط6، 1974.
11. طهو هند حسين، النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع، دار الرشيد، الجمهورية العراقية 1981.
12. عباس، إحسان. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان، 2006.
13. عبدالله، محمد حسن، مقدمة في النقد الأدبي، دار البحوث العلمية، 1975.
14. مندور، محمد. النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.
15. نجم، وديعة طه، الجاحظ والنقد الأدبي، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية العاشرة، 1988.